مجلة *أسيناگ*-ⴰⵙⵉⵏⴰⴳ، العدد الأول – 2008، ص 15 - 30

بعض مظاهر التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب عبر التاريخ

المحفوظ أسمهر، صباح علاش، علي بنطالب
المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

ملخص

يحاول هذا المقال رصد الوضعية العامة للتنوع الثقافي واللغوي بالمغرب القديم والوسيط ثم الحديث فالمعاصر. فبخصوص المغرب القديم، يبدو من المعطيات الحالية أن البعد المحلي الأمازيغي كان واضحا في المجالات الحضارية/ الثقافية التي مستها بعض التأثيرات المتوسطية. وفي العصر الوسيط، تفاعل المغرب مع وصول العرب واستقرارهم بمجالات مختلفة من البلاد. وشهد العصر الحديث توافد عدد من الموريسكيين واليهود. أما في الفترة المعاصرة، فقد أحدث التدخل الأجنبي تحولات كبيرة خاصة خلال فترة الحماية. كما شهدت فترة ما بعد الاستقلال تحولات أدت في الوقت الراهن إلى تزايد الاهتمام بالثقافة الأمازيغية كرافد أساسي من روافد الهوية الوطنية.

مقدمة

تعتبر الثقافة المحدد الرئيس لتمييز هوية الشعوب بعضها عن بعض. فرغم الصعوبات التي تعترض المتخصصين في التحديد الدقيق لمفهوم الثقافة، إلا أن الأخذ بالمفهوم الواسع للكلمة – والذي يعني مجموع القيم المعنوية والمادية التي تميز مجتمعا عن غيره عبر مختلف العصور– يسمح بالقول إن الوضع الثقافي واللغوي بالمغرب تميز عبر تاريخه الطويل بالتنوع والتعدد، مع اختلاف في حجمه ومظاهره من عصر لآخر. ونلمس أثر ذلك في العديد من الجوانب الحضارية، سواء في التاريخ القديم للبلاد أو تاريخها الوسيط والحديث ثم المعاصر[1]، حيث ارتبطت كل مرحلة بظروف تاريخية أثرت على واقع التنوع الثقافي واللغوي.

[1] تقتضي مقاربة موضوع من هذا القبيل مساهمة باحثين يهتمون بحقب مختلفة من تاريخ المغرب، لذلك كانت مساهمة كل باحث مرتبطة بفترة تخصصه: المحفوظ أسمهر (التاريخ القديم)، صباح علاش (التاريخ الوسيط)، علي بنطالب (التاريخ الحديث والمعاصر).

ويحاول هذا المقال إبراز أهم المحطات التاريخية التي تركت بصماتها على المشهد الثقافي واللغوي بالمغرب عبر مختلف العصور من خلال رصد أهم الظروف التاريخية التي أثرت فيه، فضلا عن إبراز بعض المظاهر التي تعكس تنوع هذا المشهد.

I – ملاحظات أولية على التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب القديم

أصبح من المألوف، كلما أثير موضوع التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب، التأصيل لجذوره في التاريخ القديم. ويبرر هذا بتفاعل ساكنته ، مثل باقي أمازيغ شمال أفريقيا القديم، مع بعض شعوب الحوض المتوسطي، التي برزت في فترات معينة على مسرح الأحداث بهذا الحوض، مثل الفينيقيين والقرطاجيين والرومان والوندال ثم البيزنطيين. وبسبب هذا التفاعل، أصبح ينظر إلى هذه المرحلة وكأنها الفترة التاريخية التي تشكلت إبانها المعالم الأولى للتنوع الثقافي واللغوي في تاريخ المغرب، مع العلم أن ساكنة المغرب القديم كانت لها علاقات مع الضفة الشمالية للحوض المتوسطي قبل ذلك بآلاف السنين.(Souville, 1998).

صحيح أنه حصل تفاعل بين أمازيغ المغرب القديم والشعوب السالفة الذكر، لكن المقاربة التي تم بها تناول هذا الموضوع، لاسيما في دروس التاريخ بالمقررات المدرسية[2]، أدت إلى تصورات خاطئة حول طبيعة هذا التفاعل وحجمه، لأنها عكست فقط النظرة ذات الاتجاه الأحادي التي تجعل المؤثر الخارجي هو الفاعل، رغم الانتقادات العلمية التي وجهت لهذه النظرة (Peyras, 1995). وقد أدى هذا بدوره، في اعتقادنا، إلى سيادة تصور عن واقع التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب القديم، لا يساير مستجدات البحث العلمي حول هذه الحقبة التاريخية.

إن الحديث عن هذا التنوع، بعبارات عامة، في تلك الفترة من تاريخ المغرب، من شأنه أن يحجب الصورة التي تسمح لنا الوضعية الحالية للبحث التاريخي والأركيولوجي بنسجها حوله. ونود أن نشير في المقام الأول إلى أن هذه الوضعية لا تسمح إلا بتناول هذا الموضوع بكثير من الحذر؛ فالعديد من القضايا التاريخية، التي يمكنها أن تسمح ببعض الاستنتاجات والافتراضات فيما يتصل بواقع التنوع الثقافي واللغوي في المغرب القديم، ما تزال تتسم بالغموض والتعقيد.

---

[2] لم تتغير بعد هذه النظرة في مقررات مادة الاجتماعيات التي أدرجت فيها دروس حول تاريخ المغرب القديم، رغم كثرة الانتقادات الموجهة إليها. ونعتقد أنه آن الأوان لكي يساهم المتخصصون في وضع هذه الدروس. فقد نتج عن غيابهم في هذا المجال عدم مسايرة محتوى هذه الدروس لتطورات البحث العلمي التي تراكمت حول هذه الحقبة التاريخية، مما أدى إلى هدر للمجهودات التي بذلت في هذا الميدان.

وفي هذا الإطار، نعتقد أن تاريخ المغرب القديم له بعض الخصوصيات التي يُفترض أخذها في الحسبان عندما نتناول هذا الموضوع. تأتي في مقدمتها علاقاته بالهجرات التي توافدت، لأسباب شتى، على شمال أفريقيا القديم. فاستقرار هؤلاء الوافدين بالمنطقة ساهم بشكل واضح في إفراز ما نسميه اليوم بالتنوع الثقافي واللغوي، لأنه زاد من وتيرة التفاعل بين حضارات/ ثقافات مختلفة. وباستقراء تاريخ المجال الأفريقي المتوسطي القديم، يبدو أن وضعية جزئه الغربي مخالفة لباقي مناطق هذا المجال فيما يخص استقبال الموجات البشرية الوافدة، إذ يظهر أن هذه الأخيرة استقرت بنسبة أكبر في وسطه وشرقه مقارنة مع غربه، فالقاعدة الخلفية للاستقرار الفينيقي كانت بقرطاج، بينما تركز الاستقرار الإغريقي بقورينا في ليبيا الحالية (Chamoux, 1953).

أما في المغرب القديم، فالمعطيات الحالية تفيد أن أقلية قليلة من بعض شعوب الشرق، خاصة الإغريق، هي التي استقرت ببعض مدنه الكبرى، أغلبيتهم كانت من الفيالق الرومانية المرابطة بالمنطقة (Euzennat. 1976). وبخصوص الاستيطانات التي توالت على الشريط المتوسطي الأفريقي القديم، وما صاحبها من تأثيرات حضارية/ ثقافية، فيبدو أنها توغلت أكثر كلما اتجهنا نحو الشرق : فآخر ما استولى عليه الرومان في هذا الشريط هو شمال المغرب القديم، وهو كذلك أول ما سجل فيه تقهقر لهم. أما الوندال والبيزنطيون فآثارهم واستقرارهم بهذه المنطقة يكتنفه غموض كبير. ونعتقد أن هذا كله من العوامل التي ساهمت في عدم تكافؤ حجم التأثيرات الثقافية واللغوية المتوسطية التي مست المجال المتوسطي الأمازيغي في هذه الحقبة من تاريخه، لذا يبدو من خلال المعطيات المتوفرة حاليا أن هذه التأثيرات تظهر أكثر وسط وشرق هذا المجال، أي كلما ابتعدنا عن المجال المغربي الحالي في اتجاه الشرق.

فإذا انطلقنا من المعطيات الحالية وحاولنا من خلالها رسم صورة تقريبية للواقع اللغوي بالمغرب القديم، فمما لاشك فيه أنه إلى جانب اللغة الأمازيغية، التي كانت هي المهيمنة، تُدوولت بالمنطقة، وبنسب متفاوتة، لغات أخرى. ويبدو من المعطيات الإبيغرافية المتوفرة أن الكتابة الفينيقية كان لها استعمال جد محدود بمراكز المغرب القديم التي تعاملت ساكنتها تجاريا مع الفينيقيين. فما عثر عليه لحد الآن لا يتجاوز حروفا فينيقية على الخزف اكتشفت بكثرة في موقع موكَادور (Amadasi Guzzo, 1992). أما نصيب المواقع الأثرية المغربية القديمة من النقائش المكتوبة بالبونية والنيوبونية (Néopunique) فقليل أيضا، إذا ما قارناه بما عثر عليه في مواقع أخرى بباقي شمال أفريقيا القديم، لاسيما المجال الأفريقي–البوني. ومع

ذلك، نلاحظ أن نقود المغرب القديم كتب على جلها بهاتين الكتابتين (Mazard, 1955; Muller, 1862). فهل هذا يعكس انتشار اللغة البونية ثم النيوبونية بالمغرب القديم؟ أم أنه فقط راجع إلى تأثير قرطاج على صناعة النقود بالمغرب القديم لدورها التجاري الكبير في الحوض المتوسطي؟

لا نتوفر حاليا على عناصر كافية للإجابة. لكن ما أثار انتباهنا أن بعض النصوص رغم شح معلوماتها وغموضها، فإنها توحي بأن القرطاجيين أو البونيين لم يكن للغتهم بالمجال المغربي القديم نفس الانتشار الذي كان لها في مناطق المجال البوني الإفريقي ونواحيه؛ فنص هيرودوت (Hérodote, Histoire, IV, 196) المشهور حول ما يعرف بالتجارة الصامتة، رغم كثرة تأويلاته، يوحي أيضا بأن التواصل اللغوي لم يكن جيدا بين المتعاملين، أي أمازيغ المغرب القديم والتجار القرطاجيين. أما نص رحلة حانون الذي يشير إلى مرافقة هذا الرحالة لمترجمين من الليكسيتيين(les lixites=lixitai)، على الساحل الأطلسي المغربي، ليقوموا بمهمة الترجمة بينه وبين الإثيوبيين (Hannon, périple, 8)، فقد أوله الكثيرون على أنه دليل على تداول اللغة البونية بمناطق المغرب القديم التي تعاملت ساكنتها تجاريا مع القرطاجيين، وبالتالي فمهمة مترجمي حانون هي الترجمة من الإثيوبية إلى البونية.

لكن هناك من يرفض هذا التأويل ويرى فقط أنهم مترجمين من الإثيوبية إلى الأمازيغية التي قد يعرفها حانون أو بعضا من مرافقيه (غازي، 2006: 86). لكن السؤال المطروح: هل كان إثيوبيو الجنوب المغربي القديم يتكلمون غير الأمازيغية؟ مع العلم أن مجالهم يحتفظ بالكثير من الأدلة التي تبين أنهم أمازيغ، وعلى رأسها نقائش أمازيغية قديمة على اللوحات الصخرية (Skounti et al, 2003).

أما اللغة اللاتينية فقد كانت مستعملة بالمناطق التي كانت خاضعة لسلطة الرومان. لكن هل كانت تستعمل فقط في الأمور ذات الصبغة الرسمية -كما سيحصل لاحقا مع الاستعمار الحديث- أم كان لها تأثير على لغة التخاطب اليومي لساكنة المغرب القديم من الأمازيغ؟ وما حجم هذا التأثير إن وجد؟ تعوزنا المعطيات للإجابة، لكن يبدو أن المعطيات الإبيغرافية توحي بأهمية استعمال هذه اللغة على المستوى الرسمي خصوصا بالمراكز الحضرية، الأمر الذي يجعل مناطق انتشارها محدودة مقارنة مع مجموع المجال الذي تقطنه ساكنة المغرب القديم. ونعتقد أنه من الأهمية بمكان أن نستحضر في هذا الصدد أن ساكنة المجالات الأمازيغية القديمة التي تعرضت للاستعمار الروماني قاومت الرومنة (Benabou, 1976)، أي أنها قاومت، بوعي أو بغير وعي، كل ما نسميه اليوم "مظاهر الغزو الثقافي الاستعماري".

بالإضافة إلى كل ما سبق، نعتقد أن ثمة أيضا عامل آخر ساهم في اختلاف حجم التنوع اللغوي بين مختلف مناطق المجال الأمازيغي المتوسطي القديم. نقصد هنا الإشعاع الكبير للمدرسة القورينائية (بليبيا الحالية) والمدرسة القرطاجية، إذ يبدو أن كلا منهما ساهم في انتشار لغات أخرى (الإغريقية والبونية والنيوبونية واللاتينية) بالمجالات الأمازيغية المجاورة لها. وبالمقابل لم تكتشف بالمغرب إلا نقائش معدودة بالإغريقية والعبرية، أغلبها بوَليلي (Euzennat, 1976). كما أن انتشار المسيحية بكثرة في المجال البوني الأفريقي ونوميديا (مبكر، 2001)، ساهم أيضا في انتشار اللغة اللاتينية بهذه المناطق، بينما لا نملك إلا معطيات جد قليلة عن وضعية المسيحية بالمغرب القديم.

أما ما نسميه اليوم بالتنوع الثقافي، فلا يمكن أن نعرف، بكثير من التفصيل، حجمه وامتداداته ومجالاته في المغرب القديم، لأن المعطيات المتوفرة حاليا لا تسمح بذلك. فإذا انطلقنا من الرأي القائل بأن الأساس الحضاري الليبي (أي الأمازيغي القديم) هو الذي تفاعل مع المؤثرات الحضارية الخارجية التي انصهرت في خصوصيات هذا الأساس المحلي (Peyras, 1995 : 216)، فإن التنوع الحضاري، وبالتالي التنوع الثقافي، بالمغرب القديم يجب أن لا ننظر إليه من الزاوية التي تعطي الأولوية، في تشكيله، للروافد الحضارية الخارجية وتجعلها هي المؤسِّسَة والفاعلة، بينما دور المحلين كان ثانويا أو هامشيا[3].

بهذا المنظور، يمكن القول إن البعد الأمازيغي كان هو الطاغي في المشهد الحضاري، الذي يصعب فصله عن الثقافي بالمغرب القديم. ومع أن منطق التاريخ يفرض الغلبة لثقافة الساكنة المهيمنة بمجال معين، كما هو حال أمازيغ المغرب القديم، إلا أننا سنقف عند بعض الأدلة التي ترجح هذا الرأي.

أولها أن كل ملوك مملكة المغرب القديم المعروفة أسماؤهم، باستثناء بطليموس، سموا بأسماء أمازيغية، مما قد يعني أن أعلى الهرم الاجتماعي– وهو الذي عادة يكون في مقدمة الفئات التي تتأثر بالمؤثرات الخارجية– تمسك بأسماء أصيلة في ثقافته.

[3] نود أن نسجل في هذا الإطار أنه بمناسبة انعقاد الأيام الوطنية حول خمسين سنة من البحث التاريخي – من طرف الجمعية المغربية للبحث التاريخي أيام 7–8 دجنبر 2007 بالرباط–لاحظنا أن هناك شبه إجماع المشاركين في ورشة ماقبل التاريخ والتاريخ القديم حول ضرورة القيام بمقاربة علمية للأطروحات التي تغيب دور المحليين في صنع حضارة المغرب القديم، بل وتمت الدعوة إلى التفكير في بلورة تحقيب جديد لتاريخنا القديم، لأن التحقيب المعمول به حاليا يهمش دور المحليين (أمازيغ المغرب القديم) ويعكس فقط النظرة الدونية إليهم.

ثاني هذه الأدلة أن جل مدن المغرب القديم لها أسماء أمازيغية (غازي، 2006 : 76-77) مع العلم أنها كانت نقط التفاعل بامتياز بين المحليين والوافدين على مجالهم. ومن هذه الأدلة أيضا العثور على نقائش مكتوبة بالأمازيغية ببعض مدن المغرب القديم (Galand, 1966). وقد يفهم من هذا أن الكتابة الأمازيغية، التي تعرضت داخل المناطق المتوسطية من المجال الأمازيغي القديم لتأثير قوي من الكتابات الأجنبية، ظلت مستعملة بهذه المناطق إلى فترات متأخرة.

وعموما، إذا كان تفاعل أمازيغ المغرب القديم مع العالم المتوسطي القديم يجعل إثارة موضوع التنوع اللغوي والثقافي بالمغرب القديم أمرا مقبولا، فإن الخلاصات التي تسمح بها المعطيات الحالية حول حجم هذا التنوع ومجالاته وامتداداته تستلزم الكثير من الحذر.

II - التنوع الثقافي واللغوي بمغرب العصر الوسيط

ورث مغرب العصر الوسيط عن العصر القديم انفتاحه على التيارات الثقافية المتوسطية، لكن تميز هذا العصر بانتشار الإسلام، ومعه اللغة العربية، مما أضفى دينامية جديدة على واقع التعدد اللغوي والثقافي بالمجال المغربي، شأنه في ذلك شأن باقي مناطق شمال أفريقيا.

لقد استطاع الموروث الحضاري الأمازيغي، بجميع تجلياته والضارب في جذور التاريخ منذ أقدم العصور، أن يتفاعل ويستوعب المؤثرات الثقافية الجديدة، كما فعل من قبل مع المؤثرات الفينيقية والرومانية وغيرها. نهل المغرب من هذه الحضارات المتوسطية كما نهلت منه، فكوَّن بذلك بوتقة حضارية متوسطية، منفتحة على التأثيرات الآتية من الشرق والجنوب، فتلقى من الشرق تأثيرات الحضارة اليهودية والعربية والتركية.

كما أن للحضارة المغربية المتوسطية بعد صحراوي إفريقي، امتدت إليه جذور المغرب لتعل من خصوصياته. فرغم الامتداد الكبير للصحاري القاحلة جنوب المغرب، فإنها -على عكس ما يعتقد- شكلت مجالا للتواصل بين المغرب وأفريقيا الغربية (السودان)، خاصة مع دخول الجمل إلى المجال الصحراوي، كوسيلة للتنقل منذ حوالي القرن الثاني قبل الميلاد. وتعزز البعد الصحراوي في الثقافة والهوية المغربيتين بتوافد عناصر بشرية متعددة خلال الفترة الوسيطية، واندماجها في المجتمع المغربي بحمولتها الثقافية التي أثرت وأغنت تعددية الثقافة واللغة المغربيتين، إذ تكفي الإشارة إلى الموسيقى الروحية الگناوية، التي أضحت مغربية بامتياز.

لكن البعد الذي نجح في التأثير كثيرا على البعد الأمازيغي الأصلي، منذ العصر الوسيط، هو البعد العربي الذي ارتبط بالإسلام، ودخل إلى المغرب خلال هذه المرحلة. واقتران اللغة العربية بالقرآن جعلها لغة الدين الإسلامي، وأكسبها القداسة التي أعطيت له، ومن هنا بدأت تزداد أهميتها في مجال التدوين، خاصة بعد القرن 1 هـ/7 م. (العلوي القاسمي، 1995: 219)، بينما ركنت اللغة الأمازيغية أكثر إلى الشفوية والتواتر اليومي المعيشي.

يتميز المغرب بموقع استراتيجي، نظرا لانفتاحه على واجهتين بحريتين، وقربه من أوربا شمالا، إذ يعتبر أقرب نقطة إليها، وينفتح جنوبا على الصحراء وشرقا على المشرق العربي والتركي. فقد تفاعلت فوق الأرض المغربية الديانات السماوية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام، مع أعراف دينية قديمة موروثة عن تاريخها العريق، وأثر ذلك في العقلية ونظام الحياة الاجتماعية، وطبعت المجتمع المغربي بديناميكية مستمرة، أعطته قابلية التغير وباستمرار. (العلوي، القاسمي، 1995: 214).

فإذا كان العنصر البشري هو الفاعل الأساسي في التنوع الثقافي واللغوي، فمن البديهي البحث عن مكوناته ومظاهر تنوعه خلال العصر الوسيط. إن جل الدراسات التاريخية أثبتت أن المكون الأمازيغي هو الأقدم، ومحدده الأساسي هو اللغة، التي كانت مختلفة عن اللغات المستعملة من قِبل باقي شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط، وهذا التمايز اللغوي، جعل الإغريق يسمونهم بالبربر (بمعنى الذين لا يتكلمون اليونانية)، ونقلها عنهم البيزنطيون ثم العرب.

وتميز الأمازيغ بتعدد قبائلهم، والتي من أهمها: أوربة، أوريغة، هوارة، صنهاجة، كتامة، مصمودة، وزناتة. وأيضا بتعدد أنماط عيشهم التي قسمها ابن خلدون إلى نمطي البدو والحضر (ابن خلدون، بدون تاريخ: 165-166)، وتطورت بعد ذلك لتشمل حياة البداوة المرتبطة بالقبائل، والفلاحة المرتبطة بالقرى، والحضارة المرتكزة بالمدن.

إلى جانب الأمازيغ، نجد عناصر أخرى ناتجة عن التواصل البشري الذي ميز العصر الوسيط، وأغنى المغرب إثنيا ولغويا وثقافيا، ومنها:

الأفارقة: هم أصلا من الأمازيغ الذين اختلطوا مع الروم، ودخلوا في خدمتهم، أومن الأجانب الروم، أعقاب الجيش والموظفين البيزنطيين وغيرهم، الذين طال تواجدهم في المغرب حتى تطبعوا، فكانت لهم لغتهم الخاصة، ويسكنون

الحواضر، وقد اعتنقوا الإسلام للمحافظة على مكانتهم الاجتماعية، (محمود إسماعيل، 1985: 49-50).

عرف المغرب أيضا، إضافة للسود الأصليين والمعروفين بالإثيوبيين أو الحراطين، توافد عدد من ***السود*** أو ***العبيد*** ، وتعود علاقتهم بالمغرب إلى كونهم أصلاء بالمغرب أو تمّ استقدامهم واستخدامهم في الأشغال الخاصة، وأنشطة الفلاحة، من زراعة ورعي، وحراسة. كما أدخلوا قسرا في التجارة الدولية الرابطة بين الصحراء والبحر الأبيض المتوسط، ناصروا حركة الخوارج في المغرب، وأسهموا في قيام دولة بني مدرار في سجلماسة (محمود إسماعيل، 1985: 113).

العرب: ارتبط تواجد العنصر العربي بالفتوحات الإسلامية، غير أن الأبحاث تكاد تجمع على أن أعداد الوافدين كان محدودا في بداية الأمر، وارتبط أساسا بحركة العبور إلى الأندلس، كما يستشف من قول ابن عذاري: "..*لما تسامع الناس من أهل بر العدوة (المغرب) بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها، فأقبلوا نحوه من كل وجه، وخرق البحر على ما قدروا عليه من مركب وقشر ولحقوا بطارق...*" (ابن عذاري، 1980: 25). وتوالى دخول العناصر العربية بشكل محدود طيلة القرون الخمسة الأولى للهجرة، وتركز وجودها في المدن وضواحيها، وساهمت بذلك في تعريبها دون البوادي، (العلوي القاسمي، 1995: 318). وعرف القرن 6 هـ/12 م، أكبر عملية ترحيل أو تهجير للقبائل العربية، في اتجاه المغرب الأقصى، باستقدام قبائل بني هلال وبني معقل من قِبل الموحدين.

اليهود: يمكن التمييز بين موجتين من الهجرات اليهودية إلى المغرب: يهود الشرق الذين دخلوا إلى المغرب منذ العصر القديم، ويهود الغرب الذي كانوا بشبه الجزيرة الإيبيرية، وعادوا منها إلى المغرب إثر موجة الطرد التي مستهم مع المسلمين بعد سقوط غرناطة سنة 1492م. كان تأثيرهم قويا في المجال الاقتصادي، واختلفت أوضاعهم من دولة لأخرى، إذ كانت متميزة خلال العصر المريني، مقارنة مع العصر الموحدي، حيث تقلد أحدهم منصب الحجابة، وأثروا في الحياة السياسية والاقتصادية (الدفالي، 1999).

وقد شكلت العناصر الخمسة، المشار إليها أعلاه، وغيرها (كالأندلسيين) نموذجا للتلاقح والتلاحم والتعايش والاندماج، الذي أنتج الإنسان المغربي بمفهومه التاريخي الاستمراري، فهو يستمد هويته من الأرض المغربية بصحرائها وجبالها وسهولها وأنهارها وهضابها ومن تنوع مكوناته البشرية (العلوي القاسمي، 1995 : 298).

لقد ساهم هذا التنوع البشري في التعدد اللغوي والثقافي بالمغرب، فالعربية مثلا تلاقحت وتواردت مع الأمازيغية، وأنتجتا الدارجة المغربية، التي تجمع بين كلمات عربية وأمازيغية من جهة، وبين كلمات عربية، ولكن بقوالب ومعاني ثقافية أمازيغية من جهة أخرى. وبدخول الإسلام إلى المغرب، ظهرت ترجمة واسعة للمبادئ والشرائع الإسلامية، من العربية إلى الأمازيغية، سواء مع البرغواطيين أو مع الموحدين. ونجح محمد بن تومرت في توظيف الموروث الثقافي الأمازيغي في صلب مشروعه العقدي، وحافظ على الإسلام السني بمبادئه، مكتفيا بترجمته إلى اللغة الأمازيغية، وإنجاز الترجمة في حد ذاته عمل ثوري، (بولقطيب، 1990)، فهو إعلان ضمني بصلاحيته، كما هو إعلان على أهمية العنصر الأمازيغي وضرورة استيعابه العقيدة الواردة باللغة العربية، ومن ثم كان يشترط في الخطباء والوعاظ إتقان اللسانين الأمازيغي والعربي.

إن هذا التلاقح بين مختلف المكونات، لم يمنع من استمرار اللغة الأمازيغية في المغرب، خلال مختلف العصور التاريخية، رغم وجود اللغة العربية التي ارتبطت بالإسلام، لأنها بقيت لغة التعامل اليومي، بل إن العديد من المجموعات العربية "تمزّغت"، أو أدخلت نماذج من السلوكيات الثقافية الأمازيغية. أما العربية الفصحى فقد وجدت في المغرب التربة الخصبة، لتنتشر كلغة للتدريس، وقد أبدع الأمازيغ المغاربة في طرق تعليمها، والتي اعتمدت أساسا النظم الشعري لقواعدها، معززة بالأمثلة التطبيقية.

وأدمجت العربية والأمازيغية كلمات أوروبية وتركية نتيجة للتفاعل الحضاري معها، فيكفي أن نشير إلى المفهوم الإداري التركي *"الإيالة"* الذي أطلقه العثمانيون على الأقاليم أو الولايات التابعة لهم، وأصبح مع السعديين ثم العلويين يطلق على الدولة المغربية (الإيالة الشريفة). ورافق الاحتلال الإيبيري للسواحل المغربية خلال القرنين 15 و16 م، دخول عدة كلمات إسبانية إلى الدارجة المغربية، بينما استمرت العبرية كوسيلة للتواصل لدى اليهود المغاربة.

ومن مظاهر التعدد الثقافي بالمغرب الوسيط : التعدد الديني، حيث إن انتشار الإسلام بمذاهبه المختلفة والمتعددة وتوسعه، لم يحل دون استمرار الديانات السماوية الأخرى لدى معتنقيها، وخاصة اليهودية. فهذا التعدد الثقافي تجاوز المجالات اللغوية والدينية إلى التنوع في ميدان المعمار، حيث امتزجت الخصوصيات المغربية بالعربية والأفريقية والإسبانية، فأعطت معمارا فريدا ومتنوعا حسب المؤثرات والأقاليم، ومن جملته الطراز المغربي الأندلسي. (وزيري، 2004).

وقد تميز المغرب بتنوعه المجالي، الذي نتج عنه تنوع ثقافي مرتبط بتكيف الإنسان مع بيئته، إذ نجد الثقافة المرتبطة بالأوساط الجبلية وبأنشطتها الاقتصادية، وثقافات البيئة الصحراوية، أو السهلية، أو الساحلية، وما يقترن بكل واحدة من أنشطة اقتصادية واجتماعية، وما تراكمه من خبرات في التكيف، والتطويع لمعطيات البيئة الطبيعية.

هكذا إذن كان مغرب العصر الوسيط مسرحا تتلاقح فيه مكونات بشرية متعددة ومتنوعة، مما أعطاه شخصية فريدة وخاصة، من مميزاتها التعدد اللغوي والثقافي. وعزز انفتاح المغرب خلال العصور الحديثة رسوخ هذه الشخصية وهذا التعدد اللغوي والثقافي.

III – جوانب من التحولات اللغوية والثقافية خلال الفترة الحديثة والمعاصرة

تميزت الفترة الحديثة من تاريخ المغرب بتوافد عناصر أخرى أهمها المورسكيون بالأندلس. فقد عملت الدولة الإسبانية على تهجيرهم وطردهم نهائيا من شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث قام فيليب الثالث، ابتداء من سنة 609 م، بطرد عدد كبير منهم، كما يبين ذلك نص أورده ابن تاويت: "*...إن الدولة الإسبانية منهمكة حاليا في التزود بالسفن القاصدة إلى أندلسيا بقصد نقل (المورسكيين) إلى بلاد البربر، بسبب تمهيدهم السبيل لعظيم الترك إلى هذه المملكة مما قد اكتشف أخيرا. وقد حكم عليهم حكما عاما بأن يطردوا من كلتا مملكة إسبانيا ومملكة البرتغال، وأن تنزع منهم أراضيهم وأمتعتهم...*" (ابن تاويت، 1962: 97).

وقد توزعت أعدادهم على مجموع المغرب الكبير، وقصد العديد منهم مدن المغرب الأقصى، خاصة تطوان وفاس وسلا والرباط. وكان لهجرة هؤلاء إلى المدن المذكورة الأثر البالغ على الجانبين اللغوي والثقافي، حيث نقلوا معهم إرثهم الحضاري، واستمر اليهود –منهم على الخصوص– في استعمال الإسبانية كلغة للتواصل.

وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، كان لاحتلال الإسبان والبرتغال لعدة مدن على الساحلين المتوسطي والأطلسي بالغ الأثر. فبعد احتلال سبتة ومليلية، هاجموا الشواطئ المغربية وأسسوا بها مراكز في كل من طنجة وأصيلا والعرائش والمعمورة وأنفا وأزمور وأسفي وأگادير. وكانت هذه المستعمرات عبارة عن حصون عسكرية ومراكز تجارية تتم عن طريقها المبادلات بين الأجانب وسكان المناطق المجاورة من المغاربة. واستمر هذا الاحتلال مدة طويلة.

وتميزت الفترة الممتدة من القرن السابع عشر إلى حدود النصف الأول من القرن التاسع عشر بحدوث تحولات مجالية أثرت على واقع الخريطة اللغوية بالمغرب. فقد تحركت العديد من القبائل في اتجاهات مختلفة وغيرت من مواقعها، كما هو الحال بالنسبة لقبائل صنهاجة التي تحركت من الأطلس الكبير الشرقي في اتجاه السهول خاصة الساحلية. فاستقر كل من زمور وگروان وزيان بموقعهم الحالي، وصعد آيت عطا في اتجاه واحات تافيلالت ودرعة، وتقدمت قبائل جبالة في اتجاه الشمال الغربي، كما تقدم بنو حسن –أمام ضغط كل من زمور وگروان– في اتجاه سهل الغرب، واضطر زعير للتحرك نحو الساحل فاسحين المجال لاستقرار زيان بموقعهم الحالي بالأطلس المتوسط، كما نزلت قبائل مصمودة من الأطلس الكبير في اتجاه حوز مراكش.

وبذلك تكون هذه الفترة قد اتسمت بسيادة الثقافتين الأمازيغية والعربية داخل المجتمع المغربي، رغم ما تسرب إليهما من التأثيرات الإسبانية والبرتغالية. يضاف إلى ذلك تواجد عدد من السود الأصلاء والأفارقة الذين قدموا من السودان مع حملة أحمد المنصور السعدي للعمل خصوصا بمعامل السكر التي أنشأها السلطان المذكور، حيث ساهموا في إغناء التنوع الثقافي واللغوي. كما تجدر الإشارة أيضا إلى الدور الذي لعبه اليهود في إغناء هذا التعدد، فمنهم من كانت له جذور عريقة في المغرب، وكان يتحدث إما بلغة أهل البلد أو بالعبرية، ومنهم من استوطنه حديثا هروبا من الاضطهاد المسيحي في إسبانيا، وتحدث لغة عربية ممزوجة بالإسبانية، حيث إن مظاهر الائتلاف لا تخفي مظاهر التعدد والاختلاف (بوطالب، 2006 : 23).

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبحت البلاد معرضة لتأثيرات خارجية في جميع المجالات. فالاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م حتّم على المغرب نوعا من التعامل مع الوضع الجديد (Brignon, et al : 284). وأدت المعاهدات الموقعة مع كل من بريطانيا سنة 1856م، وإسبانيا سنتي 1860–1861م، وفرنسا سنة 1863م، بالإضافة إلى نتائج مؤتمر مدريد سنة 1880م إلى تزايد عدد الأجانب بالبلاد. كما تزايد عدد المحميين والمخالطين والسماسرة الذين كان لهم ارتباط بالأجانب (Miege, 1963). بالإضافة إلى ذلك، أوفدت الدولة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر مجموعة من الشبان المغاربة إلى بعض الأقطار الأوربية للتعلم والتشبع بالتقنيات العصرية في شتى الميادين (الشابي، 1995).

شكل القرن العشرين منعطفا كبيرا في تاريخ المغرب، حيث شهدت كل الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية تحولات كبيرة. لقد كان

المجتمع المغربي في بداية القرن يبدو على شكل كتلة كثيفة من القبائل، يمتد مجالها من أقصى ضفاف نهري النيجر والسنغال إلى ضفاف البحر الأبيض المتوسط، ومن واحات توات وتيدكلت إلى شواطئ المحيط الأطلسي، وكانت الأغلبية الساحقة من سكان البلاد تقطن البادية (بوطالب، 2006 :22).

فرضت فرنسا حمايتها على البلاد في 30 مارس 1912م، واتفقت مع إسبانيا بموجب معاهدة 27 نونبر 1912م على أن تحتل هذه الأخيرة القسمين الشمالي والجنوبي، الأمر الذي أدى إلى حدوث تحولات في الحياة اللغوية والثقافية للبلاد. ذلك ما تجسد في مظاهر مرتبطة بالسياسة التي اتبعها الاستعمار في مجال التعليم على الخصوص، حيث كان جهاز الحماية في حاجة إلى مترجمين، ولذلك أنشأ سنة 1912 "مدرسة عليا للغة العربية واللهجات البربرية" تحولت سنة 1921م إلى "معهد للدراسات المغربية العليا". وكان عليه أن يستجيب للمتطلبات التعليمية لأبناء المعمرين الأوربيين، وهم كثيرون، لذلك أنشأ سنة 1912م مصلحة للتعليم ستتطور فيما بعد إلى "مديرية للتعليم العمومي". وكان أيضا في حاجة إلى أعوان ووسطاء مغاربة يساعدونه على غرس وتوطيد النظام الجديد، ولذلك خلق "مصلحة التعليم الفرنسي الإسلامي" التي أسند إليها مهمة إعداد هؤلاء الأعوان والوسطاء (المروني، 1996 :15).

وبذلك، فإن إدخال التعليم الاستعماري كان له الأثر العميق على المجال التربوي بالمغرب، إذ أصبح العديد من المغاربة مقتنعين بضرورة تعلم اللغات الأجنبية للتأقلم مع الوضع الجديد. وهذا ما عبر عنه محمد بن الحسن الحجوي، وزير المعارف سنة 1921 بقوله: "...*لايتيسر ترقية التجارة والفلاحة والصناعة إلا بمعرفة لغة أجنبية فلا سبيل إلى هذه العلوم التي هي المقصود بالرقي والتمدن، إلا بمعرفة اللغة الأجنبية*..." (الحجوي، 1921). كما نجد الوزير عبد الله الفاسي يولي أهمية كبيرة للغة الفرنسية حيث يقول: "...*ويكفي عنوانا على رفعة قدر هذه اللغة أنها لسان السياسة وعليها المدار عندهم والمعول*..." (اليزيدي، 2006 :455). ذلك أن الأعيان المغاربة ارتأوا أن مصلحة أطفالهم ومستقبلهم مرتبط بشكل وطيد بالتكوين والشهادات التي تمنحها المدارس الفرنسية، مع ما يحمله ذلك من الانبهار بثقافة المستعمر، وتوفير سبل الحصول على مناصب عليا داخل البلاد.

كما عملت فرنسا على إنشاء بعض "المدارس البربرية" على مستوى الابتدائي، ثم تطور الأمر إلى إحداث ثانوية أزرو سنة 1930، (حسن كمال، 2002: 406–420). وكان الهدف الأساسي منها مواجهة تأثير المدارس القرآنية. غير أن

هذه التجربة فشلت لأنها عملت بشكل عام على توجيه الأمازيغ نحو التعليم الفرنسي، ولم تعتمد اللغة الأمازيغية في التدريس (اليزيدي، 2005: 459).

والتأثير نفسه مورس من طرف إسبانيا في شمال المغرب وجنوبه، الأمر الذي أدى إلى انتشار اللغة الإسبانية، ولو بشكل محدود، في هذه المناطق. وساهم في إغناء التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب ظهور صحف ومجلات ناطقة باللغتين الفرنسية والإسبانية، بالإضافة إلى الصحف العربية، بينما تقلص دور الأمازيغية في الدوائر الرسمية.

وبعد حصول المغرب على الاستقلال سنة 1956 أصبح الجو الثقافي واللغوي مخالفا تماما لما كان عليه الأمر سنة 1912. لقد كان المغرب في مطلع القرن العشرين يعرف سيادة الثقافتين الأمازيغية والعربية، مع طغيان الأمازيغية كلغة شفوية والعربية كلغة كتابية. وبعد الاستقلال انتشرت الفرنسية داخل هياكل الإدارة المغربية، وساعد على ذلك طبيعة التكوين الذي فرضته فرنسا على المغاربة خلال فترة الحماية. هذا في الوقت الذي تقلص فيه مجال الإسبانية بشكل كبير بعد استرجاع المناطق التي كانت محتلة من طرف الإسبان. (بوكوس، 1982 : 27).

ويمكن القول إن فترة ما بعد الاستقلال اتسمت باستعمال الأمازيغية والدارجة المغربية كلغتين للتواصل على المستوى الوطني. وفي الوقت الذي تم فيه تهميش اللغة الأمازيغية، ترقت العربية الفصحى لتصبح اللغة الرسمية للبلاد، واللغات الفرنسية والإسبانية والأنجليزية كلغات الاقتصاد والعلم. وساهمت سياسة التعريب وإقصاء الأمازيغية من التعليم إلى تقليص مجالاتها وتعريب الناطقين بها، خاصة الأطفال.

مع تنامي الوعي بأهمية الأمازيغية كرافد من روافد التنمية وترسيخ الهوية الوطنية، عاد الاهتمام بالثقافة الأمازيغية. وقد كان لإنشاء المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية سنة 2001 فضل كبير في هذا الشأن.

خاتمة

يظهر من خلال تتبع الخطوط العريضة للمشهد الثقافي واللغوي بالمغرب القديم والوسيط ثم الحديث فالمعاصر، أن البعد الأمازيغي، الذي شكل اللبنة الأساسية لهذا المشهد، ظل يتفاعل مع التيارات الثقافية التي كان الحوض المتوسطي مسرحا لها. ذلك ما تجسد في تفاعله، بدرجات متفاوتة، مع مؤثرات خارجية حملتها معها العناصر الوافدة: الفينيقيون والرومان والوندال والبيزنطيون، ثم العرب والأفارقة واليهود والمورسكيون والبرتغال والفرنسيون والإسبان. وهكذا فالطابع

التعددي معطى يميز تاريخ المغرب؛ إذ تشكل على أرضه، عبر القرون، تنوع ثقافي ولغوي أخصبته حمولات حضارية مختلفة. ومع ذلك، فقد ظلت الثقافة الأمازيغية رافدا أساسيا وأصيلا داخل المجتمع المغربي، لم ينل هذا التعدد من مكانتها.

بيبلوغرافيا

ابن تاويت، محمد، (1962)، « ترجمة رسالة بعث بها قنصل إنجلترا بلشبونة إلى أحد الدبلوماسيين الأنجليز » ، مجلة *تطوان*، العدد 7، ص 97.

ابن خلدون، عبد الرحمان، *المقدمة*، (بدون تاريخ)، دار الجيل، بيروت.

ابن عذاري، أحمد بن محمد المراكشي، (1980)، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، الجزء الأول، بيروت، دار الثقافة.

إسماعيل، محمود عبد الرزاق، (1985)، *الخوارج في بلاد المغرب، حتى منتصف القرن الرابع الهجري*، الدار البيضاء، دار الثقافة، الطبعة الثانية.

بوطالب، إبراهيم، (2006)، «مغرب القرن العشرين»، ضمن ملتقيات التاريخ، الرباط 30 مارس– 1 أبريل، *المغرب الكبير المعاصر، ثوابت وتحولات*، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ص 21–54.

بوكوس، أحمد، (1982)، « اللغة والثقافة الشعبية كممتلكات رمزية »، مجلة *آفاق*، يصدرها اتحاد كتاب المغرب، العدد 9، ص 26–29.

بولقطيب، الحسين، (1990)، « أسس ومكونات الدولة المغربية في العصر الوسيط، الدولة الموحدية نموذجا » ، *أبحاث*، عدد 24–25، ص 59.

الحجوي، محمد بن الحسن، (1921)، «*محاضرة في إصلاح التعليم العربي* »، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم : ح 152.

الدفالي، محمد معروف، (1999)، « التاريخ والديموغرافيا »، في الأيام الوطنية السادسة للجمعية المغربية للبحث التاريخي، *أمل*، العدد 16، ص 218– 219.

حسن، كمال، (2002)، *مؤسسات التعليم والبحث بالمغرب خلال فترة الحماية*، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب بالرباط، مرقونة.

العلوي القاسمي، هاشم، (1995)، *مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي*، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الجزء الأول.

غازي، حليمة– بن ميس، (2006)، « آثار الفينيقيين والقرطاجيين بمملكة المغرب القديم بين البحث عن الواقع والجري وراء السراب »، *مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط*، العدد 26، ص. 69–90.

الشابي، مصطفى، (1996)، *النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر*، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 26، الرباط.

مبكر، محمد، (2001)، *شمال أفريقيا القديم، حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية، 429م*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 52، الرباط.

المروني، المكي، (1996)، *الإصلاح التعليمي بالمغرب، 1956–1994*، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 17.

وزيري، يحيى، (2004)، « العمارة الإسلامية والبيئة » ، *عالم المعرفة*، عدد 304، ص 67 –68.

اليزيدي، محمد، (2005)، « مقاومة المغاربة للمد اللغوي والثقافي الفرنسي »، ضمن *ندوة المقاومة المغربية عبر التاريخ أو مغرب المقاومات*، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، ج1، ص 443–471.

Amadasi Guzzo, M. G. (1992), « Note sur les graffitis phéniciens de Mogador, dans Lixus *», in Actes du colloque international de Larache, 8-11 novembre 1989*, CEFR n° 166, Rome, p. 155-173.

Benabou, M. (1976), *La résistance africaine à la romanisation*, Paris, Maspéro.

Brignon, J. et *al.* (1967*), Histoire du Maroc*, Casablanca, Hatier.

Chamoux, F. (1953), *Cyrène sous la monarchie des Battiades*, Paris.

Euzennat, M. (1971), « Grecs et orientaux en Maurétanie tingitane », *in Antiquités Africaines***,** 5, p. 161-178.

Galand, L. (1966), « Inscriptions Libyques »*, in Inscriptions antiques du Maroc*, Paris, éd. CNRS.

Hannon, périple, dans Desanges, J. (1978), *Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique (Ve s. av. J.-C.-Ive s. ap. J.-C.)*, CEFR n° 38, Rome.

Hérodote, *Histoires, Livre* IV, Texte Traduit par Legrand, P.E. (1949), Paris, éd. Les Belles-lettres.

Mazard, J. (1955), *Corpus Nummorum Numidia Mauretaniaeque*, Paris.

Miege, J. L. (1961-1963), *Le Maroc et l'Europe (1830-1894),* PUF, Paris, 4 Tome.

Muller, L. (1862), *Numismatique de l'ancienne Afrique, t. III, les monnaies de la Numidie et de la Maurétanie*, Copenhague.

Peyras, J. (1995), « Les libyens et les autres : Réflexion sur la notion d'influences», *in L'homme méditerranéen, mélanges offertes à Gabriel Camps*, publications de l'université de Provence, Aix-en-provence, p 215-230.

Skounti, A. et *al (*2003), *Tirra, aux origines de l'écriture au Maroc,* publications de L'IRCAM, série : études et recherches n° 1, imp. Rabat, El Maarif Al Jadida.

Souville, G. (1998), « Contacts et échanges entre la péninsule Ibérique et le nord-ouest de l'Afrique durant les temps Préhistoriques et protohistoriques », *C.R.A.I*, Janv.-Mars, p. 163-17